نظرات بلاغية وأسلوبية في تفسير الطاهر بن عاشور

(تحليل الخطاب)

الباحثة سارة باقس

جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، المغرب

ملخص

اعتمد الطاهر بن عاشور في تفسيره للقرآن الكريم نظرة تكاملية شاملة تحيط بالسورة من جميع جوانبها اللغوية والتركيبية والسياقية دون فصل بين آياتها. فيبدأ التفسير عنده بتحديد موقع الآية وعلاقتها بما قبلها وما بعدها ثم ببيان معناها وما فيها من إشكال في إعرابها أو في معناها وما وقع من اختلاف فيها بين المفسرين ثم يدلي برأيه الخاص في تفسيرها ويستدل عليه بالحجج والبراهين العلمية والمنطقية.

لقد أولى الطاهر بن عاشور اهتماما بالغا بالقراءات القرآنية المختلفة المتواترة والنادرة مع ذكر أسانيدها وأخذها بعين الاعتبار في أثناء التفسير؛ كما اهتم بشرح الغريب ومعاني الألفاظ والبحث في مدار إطلاقها سواء على الحقيقة أو المجاز، مع حرصه على تشريح الآية وتجزيئها إلى وحدات وأجزاء ثم إعادة تركيبها بإضافة المحذوف منها ومعرفة الزيادة فيها ليسهل الوصول إلى المعنى الكامن في عمقها؛ فضلا عن مراعاة سياق ورود الآية وسياق مجاوراتها، لما للسياق الخارجي من أثر كبير في تحديد المعنى المقصود. ذلك أن الآيات الكريمة تحتمل أكثر من معنى، بفضل تنوع القراءات واختلاف محامل الألفاظ، مما يتيح للمفسرين الاجتهاد الأوسع في استنباط المعاني العديدة والمختلفة.

Summary

Al-Tahir bin Ashour adopted, in his interpretation of the Holy Qur'an, a comprehensive, integrated view that surrounds the surah in all its linguistic, syntactic, and contextual aspects without separating its verses. His interpretation begins by identifying the location of the verse and its relationship to what comes before and after it, then by clarifying its meaning and the problems it contains in it. Its parsing or meaning and the differences that occurred between interpreters, then he gives his own opinion on its interpretation and infers it with scientific and logical arguments and proofs.

Al-Tahir bin Ashour paid great attention to the various frequent and rare Qur'anic readings, mentioning their evidence and taking them into consideration during interpretation. He was also interested in explaining the strange and the meanings of words and researching the context of their use, whether in reality or figuratively, with his keenness to dissect the verse and divide it into units and parts, Then reconstruct it by adding what was deleted and identifying the addition to it to make it easier to reach the meaning hidden in its depth. In addition to taking into account the context of the verse's occurrence and the context of its neighbors, because the external context has a significant impact on determining the intended meaning. This is because the noble verses have more than one meaning, thanks to the diversity of readings and different meanings of words, which allows interpreters to exert greater effort in deducing many different meanings.

تمهيد

نسوق في هذا المقال بعون الله وقوته جهود الطاهر بن عاشور في تفسيره للقرآن الكريم المسمى "التحرير والتنوير"، بناء على رؤيته النقدية التجديدية ، وذلك من خلال تتبع آرائه وأقواله في تفسير بعض الآيات التي اختلف حولها المفسرون اختلافا ظاهرا، مع بيان المداخل التي ركز عليها في تفسيره التي قد يغفل عنها أكثر المفسرين بسبب الانسياق وراء التفسير الجملي للآيات دون تفكيك عناصرها والنظر في مواقعها وسياقاتها، ما جعله يعترض على كثير من المسائل النحوية والبلاغية والفقهية ويدلي فيها بدلوه ويمنحها أبعادا تفسيرية وتأويلية جديدة.

لقد دعت ضرورة البحث في هذا الموضوع إلى الوقوف عند الجانب الأسلوبي في الدراسة النقدية التطبيقية التي تميز بها تفسير الطاهر بن عاشور، وذلك لما بين الأسلوبية النقدية والتأويل من روابط شديدة الصلة لا يمكن إغفالها، من خلال ما تتيحه من مباحث الاختيار والعدول والحذف والزيادة وغير ذلك مما يساعد على الغوص في أعماق المعاني وتجاوز المعاني الظاهرة للآيات الكريمة.

هذا يقتضي التنقيب العميق في أجزاء الموسوعة كلها أو بعضها للظفر بما يخدم البحث من كل جوانبه ويغطي جميع مستوياته، لا الاقتصار على سورة واحدة من القرآن الكريم.

وقد تضمن هذا المقال قسمين اثنين؛ القسم الأول خصص للحديث عن أهم المداخل التفسيرية التي اعتمدها الطاهر بن عاشور في تفسيره، وهي القراءات ومعاني المفردات والنظم والتركيب والتقديم والتأخير وسياق الآيات.

فيما تناول القسم الثاني ملامح الدراسة الأسلوبية في تفسير الشيخ كالعدول والاختيار والزيادة والحذف.

وسنسعى بحول الله ومدده أن نجتهد ما وسعنا ذلك لإبداء بعض الملاحظات والإضافات الشخصية التي قد تغني البحث وتزيد من قيمته، سائلين الله العلي القدير أن يعصمنا من الزيغ والزلل عن جادة الحق وسواء السبيل، ومن التطاول على جلالة قدر كلامه العظيم بأن نقول فيه بغير علم ولا هدى.

أولا: المداخل التفسيرية عند الطاهر بن عاشور.

المطلب الأول: القراءات وأثرها في توجيه المعنى.

أولى الطاهر بن عاشور في تفسيره اهتماما كبيرا بالقراءات القرآنية وتحكمها في تفسير الآيات تبعا لاختلاف المبنى الذي ينشأ عنه لامحالة اختلاف في المعنى.وقد انصب عمله على إيراد مختلف القراءات المسموعة للآية الواحدة وتفسير معناها بحسب ما تقتضيه كل قراءة على حدة، مع ترجيح إحداها على الأخرى في بعض الأحيان بما يناسب من الأدلة والمرجحات الخارجية اللغوية وغير اللغوية، خاصة إذا تعلق الأمر بإشكال وجب التصدي له.إلا أنه في غالب الأحيان يكتفي بإيراد المعاني المختلفة دون ترجيح بينها للإقرار بصحة كل القراءات المتواترة، واحتمال الآية الواحدة وجوها متعددة من التأويل دون الإخلال بالمعنى الشامل الذي تحيل عليه الآية،حيث تصب التأويلات كلها في مجراه.فتختلف القراءات من حيث الوقف والابتداء أولا ومن حيث اللفظ في حد ذاته إما من حيث العلامة والموقع الإعرابيان أو التشديد والتخفيف أو حركة بعض الحروف وحتى في بعض الأحرف نفسها.

فإذا رام الباحث تتبع كل المواطن التي وقف عندها الشيخ، كان الأمر في غاية الصعوبة، لأنه لم يدع آية من كتاب الله إلا أوردها بمختلف القراءات. ولذلك سنقف عند هذا النموذج مع بيان طريقة الشيخ في استثمار القراءات القرآنية والمقارنة بينها لتقرير معنى سديد وواضح للآية. وسندلي في بعض المواطن برأينا الشخصي من مقتضى الاجتهاد في قراءة النصوص ونقد بعض الأقوال ومناقشتها بما يناسب.

فمن ذلك تفسيره الآية الأولى من سورة إبراهيم:﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[1].

قال: "قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر برفع اسم الجلالة على أنه خبر عن مبتدإ محذوف والتقدير "هو" أي (العزيز الحميد) الله الموصوف بالذي له ما في السماوات وما في الأرض...وقرأه الباقون إلا رويسا عن يعقوب بالجر على البدلية من العزيز الحميد..."[2]

الاختلاف في قراءة هذه الآية واقع في العلامة الإعرابية لاسم الجلالة (الله) وتغير موقعها الإعرابي وأمثلته كثيرة في القرآن الكريم.

فقد أورد الشيخ الوجهين في إعرابه: الرفع على أنه خبر لمبتدإ محذوف تقديره (هو) أو الجر على البدلية من (العزيز الحميد)، مقرا بفصاحة القراءتين وشيوعهما في كلام العرب حيث استدل بشعر لابراهيم الصولي على حذف المسند إليه لمتابعة الاستعمال الجاري في لغة العرب وهو ذكر موصوف بصفات معينة ثم الانتقال إلى الإخبار عنه بما هو أعظم مما سبق ذكره.

وأما عن الوجه الثاني بالجر فقد اكتفى الشيخ بقوله:"**وهي طريقة عربية**"[3].ثم أقر الطاهر بن عاشور بأن مآل القراءتين واحد، يفضي إلى أن اسم الجلالة (الله) أعظم من الصفات السابق ذكرها لأنه اسم علم لا يشاركه فيه أحد لا في إطلاقه ولا في معناه.

إلا أنه رجح الرفع على الجر فقال:"...**إلا أن الرفع أقوى وأفخم**"[4] دون أن يعطي تعليلا لهذا الترجيح.

ولعله من الضروري البحث عن مسوغات اعتبار الرفع أقوى وأفخم في لفظ الجلالة في هذا الموضع حتى يكون الحكم معللا بحجج منطقية.

وأول ما يجعل الرفع أقوى ــ في رأينا ــ أن لفظ الجلالة مبتدأ جملة جديدة على قراءة الوقف على (العزيز الحميد)، ولا شك أن بداية الجملة تحتمل أن يكون الكلام فخما قويا، تأكيدا لما قبلها أو استئنافا بيانيا لها وهذا يستدعي الرفع أولا من مقتضى المحل الإعرابي على اعتبار أن المبتدأ مرفوع أصالة فيما البدل تابع للمبدل منه وهو لا شك أضعف.

وثانيا لتحقيق التناسب بين العلامة الإعرابية وبين معنى الرفعة والسمو والجبروت الذي تحيل عليه الآية خاصة أنها جاءت مذيلة بتهديد شديد ووعيد للكافرين (**وويل للكافرين من عذاب شديد**)، وهذا المقام مقام إظهار العزة وهو يتطلب الرفع أكثر من الجر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فمما يلتفت إليه أن نظم الآية اشتمل على توالي عدة أسماء مجرورة فجاء الرفع في لفظ الجلالة متوسطا بين هذه المجرورات لغاية التنبيه إلى ما بعده وإثارة انتباه السامع أو القارئ إلى عظيم ملكوت السماوات والأرض التي هي كلها بيد الله، وإلى عزته وقدرته على أخذ الكافرين أخذ عزيز مقتدر.

ولو كان الجر مقصودا في الآية لقدم اسم الجلالة على الوصفين "العزيز الحميد" فهو علم عليه لا يشاركه فيه غيره في الذات والصفات والأفعال، وهو أولى بالتقديم فيكون نظم الآية: ﴿...**بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ (اللهِ) الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**...﴾، ولكنه أُخر عنهما ليكون الابتداء به لا من باب متابعة الوصف فحسب، وإنما لما سبق ذكره من إظهار العزة والجبروت.

المطلب الثاني: اللفظ بين الحقيقة والمجاز وغرابة الاستعمال.

- الغريب

لقد وقف ابن عاشور طويلا على الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم أو ما يعرف بغريب القرآن، وهي تلك الألفاظ التي ورد ذكرها في كتاب الله ولها أصل في كلام العرب ولكن تنوسي استعمالها لعدة عوامل، أهمها ما

طرأ على اللغة من ليونة بعد انتقال حياة العرب من طابع البداوة إلى التحضر وسكنى المدن، فترك استعمال مجموعة من المفردات زمنا طويلا إلى أن أحيا ذكرها القرآن الكريم، فتحير المفسرون وأهل اللغة في معناها خاصة تلك التي لا يجدون لها أصلا أو اشتقاقا في معاجم اللغة.

ونظرا لكثرة الأمثلة، نسوق النموذج التالي وهو تفسير قوله تعالى من سورة الحج: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[5]

احتار العلماء والمفسرون في تفسير الآية، ومعقل تحيرهم لفظ (تفثهم) وقد اختلفوا في معناه، وهو مما يتلى في كتاب الله وقد لا يلتفت إلى تبين حقيقته والمراد منه. قال ابن عاشور في تفسيره:"والتفث: كلمة وقعت في القرآن وتردد المفسرون في المراد منها. واضطرب علماء اللغة في معناها لعلهم لم يعثروا عليها في كلام العرب المحتج به. قال الزجاج: إن أهل اللغة لا يعلمون التفث إلا من التفسير، أي أقوال المفسرين. فعن ابن عمر وابن عباس: التفث: مناسك الحج وأفعاله كلها... وقال نفطويه وقطرب: التفث: هو الوسخ والدرن... قال نفطويه: سألت أعرابيا: ما معنى قوله: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ} ، فقال: ما أفسر القرآن ولكن نقول للرجل ما أتفثك، أي ما أدرنك. وعن أبي عبيدة: التفث: قص الأظفار والأخذ من الشارب وكل ما يحرم على المحرم، ومثله قول عكرمة ومجاهد وربما زاد مجاهد مع ذلك: رمي الجمار. وعن صاحب العين والفراء والزجاج: التفث الرمي، والذبح، والحلق وقص الأظفار والشارب وشعر الإبط. وهو قول الحسن ونسب إلى مالك بن أنس أيضا"[6].

فأقوال العلماء في تفسير لفظ "التفث" في هذا النص على أوجه:

الأول: أنها مناسك الحج وأفعاله كلها وهو رأي ابن عمر وابن عباس؛

الثاني: أن التفث هو الوسخ والدرن وهو قول نفطويه وقطرب؛

الثالث: يعني التفث الرمي، والذبح، والحلق وقص الأظفار والشارب وشعر الإبط. وهو قول الحسن ونسب إلى مالك بن أنس أيضا.

وفي محاولة للتوفيق بين هذه الأقوال التي ــ وإن بدت متباينةــ فهي متقاربة على نحو ما، نقول: فأما الرأي الأول والثالث فيلتقيان في أن التفث يتصل بمناسك الحج كالسعي والطواف والرمي والذبح وما يحل للمحرم بعد تحلله من إحرامه كالحلق والتقصير...وهذه الأفعال كلها تتعلق بالركن الخامس ولكنها تتوزع على ما يكون منها في أثناء الإحرام وما يكون بعده. فالاختلاف في لفظ التفث واقع بين العلماء في متعلق القضاء في قوله تعالى:(ليقضوا) وهو فعل أمر بلام الأمر، والأمر من الله إلى عباده ملزم بالاستجابة والصدوع به لاسيما في الأحكام المتعلقة بالأمور التعبدية وهم أحوج ما يكونون لمعرفة مراد الله من الآية.

وأما القول الثاني فيميل إلى أن التفث يعني الوسخ والدرن أخذا عن قول الأعراب: ما أتفثك! أي ما أدرنك!. وهو قول لا ينفصل كثيرا عن سابقيه، فقضاء التفث يعني التطهر من الأوساخ والأدران تطهرا ماديا ومعنويا وهذا مقصد من أهم مقاصد الشارع الحكيم حيث شرع الله لعباده المؤمنين مناسك الحج لتحقيق الطهارة المادية البدنية لحلولهم في أطهر بقعة على وجه الأرض وهذا يناسبه ورود لفظ الطهارة من قبل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[7] فيكون الحجاج أشد حرصا قبل الدخول في أعمال الحج والعمرة وبعد التحلل من الإحرام على التطهر، بأداء سنن الفطرة التي شرعها الدين الحنيف كالغسل وقص الأظفار وحلق الشعر وغيرها.

وأما الطهارة المعنوية فتتحقق للحاج والمعتمر بأداء المناسك في خضوع وخشوع واستحضار مقاصدها الكبرى، مع قدسية المكان وجلاله، حيث يتخلص الإنسان مما انطوت عليه نفسه من شرور وأحقاد ومساوئ الأخلاق والأفعال، كما يتطهر من ذنوبه فيرجع كيوم ولدته أمه.

وبهذا تكون التفاسير السابقة للفظ التفث تصب جميعها في مصب واحد وهو قضاء المناسك التي تطهر الإنسان من أدرانه الباطنة والظاهرة فلا تعارض ظاهر بينها.

أما الطاهر بن عاشور فيورد رأيه في هذه المسألة فيقول: "وعندي أن فعل {لْيَقْضُوا} ينادي على أن التفث عمل من أعمال الحج وليس وسخا ولا ظفرا ولا شعرا. ويؤيده ما روي عن ابن عمر وابن عباس آنفا، وأن موقع "ثم" في عطف جملة الأمر على ما قبلها ينادي على معنى التراخي الرتبي فيقتضي أن المعطوف بـــ"ثم" أهم مما ذكر قبلها فإن أعمال الحج هي المهم في الإتيان إلى مكة، فلا جرم أن التفث هو مناسك الحج وهذا الذي درج عليه الحريري في قوله في المقامة المكية فلما قضيت بعون الله التفث. واستبحت الطيب والرفث. صادف موسم الخيف. معمعان الصيف."[8]

فهو يرجح القول الأول لابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما، ويتكئ في ذلك على معطيات لغوية. أولها العلاقة بين الفعل (ليقضوا) ومفعوله(تفثهم)، حيث إنه يستدعي أن يكون المفعول عملا يُعمل وفعلا يُفعل، فيكون التفث عنده متعلقا بما يقوم به الحاج أو المعتمر من أعمال ومناسك. ولا يحتمل الفعل بذلك أن يكون المقضي وسخا ولا شعرا ولا أظفارا. كما أنه استدل بقول الحريري في مقامته: "فلما قضيت بعون الله التفث واستبحت الطيب والرفث..."

وثانيهما أن حرف العطف "ثم" يقتضي ــ في تقدير ابن عاشورــ أن يكون المعطوف أهم من المعطوف عليه وهو قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[9].فقضاء المناسك حسب الطاهر بن عاشور مقدم على ما ذكر في هذه الآية من شهود المنافع.

مما يلفت النظر في كلام الشيخ الطاهر، انتقاؤه الألفاظ والعبارات انتقاء مضبوطا ودالا، فقوله (ينادي على) يشعر السامع أن ابن عاشور يلتفت كثيرا سواء في هذا الموضع أو في مواضع أخرى إلى الضمائم اللغوية التي تدخل العناية بها في باب العناية بالأسلوب وبنظم الكلام وتأليفه مما يحصل به الفهم السليم. فاستخدامه الفعل(ينادي على) يحدد ما ينبغي أن يكون مناسبا لمعنى القضاء في الآية وما يستدعيه بشدة. وهذا الفهم أوصل الشيخ إلى ترجيح معنى المناسك واستبعاد معنى الوسخ لأنه لا يتناسب ومعنى القضاء.

وقد يُعترض على رأي الشيخ الطاهر من جهة أن القضاء في الآية قد لا يُحمل على معناه الحقيقي الذي يعني فعل الشيء، فإن التطهر من الوسخ أيضا يجوز أن يقضى فتصح نسبة الفعل إليه. ومما يؤكد ذلك اتصال فعل القضاء بأشياء مخصوصة شبيهة بما ورد في الآية كقوله تعالى:﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾[10] بمعنى استشهد في سبيل الله وهنا القضاء مجازي يعني أدى ما عليه بأن ضحى بروحه.

ويضاف إلى ذلك أنه لا ينبغي تجاهل ما جاء في كلام العرب عن التفث فهم أدرى بلغتهم، وكلامهم حجة فقول الأعرابي لنفطويه دليل على ورود اللفظ في كلامهم بمعنى الوسخ والدرن، فيجوز أن يكون من الغريب الذي ترك أو تنوسي استعماله مع مرور الوقت ثم أحياه القرآن الكريم، خصوصا أن الخطاب في الآية الكريمة موجه لا براهيم عليه السلام (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ[11]) فيكون اللفظ من المعجم اللغوي القديم.

ويلاحظ كذلك أن أحرفه قريبة المخارج (ت.ف.ث) ما يجعل اللفظ غريبا عن الاستعمال الشائع عند العرب آنذاك إلا أن ذلك لا ينفي فصاحته ما دام قد ورد في كلام الله وربما اختير لتحقيق الإيجاز في هذا المقام لأن قضاء التفث يحتمل كل المعاني التي سبق ذكرها.

- الحقيقة والمجاز

هنا نقدم نموذجا آخر يتعلق باهتمام المفسر رحمه الله بالحقيقة والمجاز في تأويل الألفاظ ومحوريتها في فهم الآيات الكريمة، بناء على القرائن اللغوية التي تسمح بحمل اللفظ على معناه الحقيقي أو خروجه إلى معنى مجازي للتعبير عن غرض معين قد لا يؤديه الاستعمال الحقيقي بالقدر الذي يؤديه الانزياح عن اللغة الطبيعية أو عما يقتضيه ظاهر الخطاب.

ومثال ذلك قوله تعالى متوعدا الوليد بن المغيرة:﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾[12]

يقول الطاهر بن عاشور:"...والخرطوم :أريد به الأنف. والظاهر أن حقيقة الخرطوم الأنف المستطيل كأنف الفيل والخنزير ونحوهما من كل أنف مستطيل. وقد خلط أصحاب اللغة في ذكر معانيه خلطا لم تتبين منه حقيقته من مجازه.

فإطلاق الخرطوم على أنف الإنسان هنا استعارة كإطلاق المشفر وهو شفة البعير على شفة الإنسان في قول الفرزدق:

فَلَوْ كُنْتَ ضَبِّيًّا عَرَفْتَ قَرَابَتِي ... وَلَكِن زِنْجِيٌّ غَلِيظُ الْمَشَافِرِ

...فالوسم :تمثيل تتبعه كناية عن التمكن منه وإظهار عجزه. وذكر الخرطوم فيه جمع بين التشويه والإهانة فإن الوسم يقتضي التمكن وكونه في الوجه إذلالا وإهانة، وكونه على الأنف أشد إذلالا..."[13]

من بديع الاستعمال القرآني، توظيف اللفظ من حقل معجمي ودلالي معين في سياق يبدو في ظاهره بعيدا، ولكن من يمعن النظر فيه ويتدبره جيدا يجد تناسبا بديعا بين اللفظ وسياق استعماله وما يقتضيه حال الخطاب ومقام التخاطب وطبيعة المخاطبين وغير ذلك من مقتضيات السياق العام.

وهنا تطالعنا هذه الآية من سورة القلم حيث يتوعد فيها الحق سبحانه شخصا معينا وهو الوليد بن المغيرة بدلالة ضمير المفرد عليه وبدلالة الآيات السابقة التي يصف فيها الله تعالى استكباره وتكذيبه الرسول الكريم:﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾.[14]

وفيها توعده الله ومن سار على نهجه بالهلاك والعذاب، ولكنه عذاب مذل مهين للكبرياء والأنفة وعزة النفس. حيث اختار المولى سبحانه الوسم على الخرطوم عذابا له ولأمثاله مبالغة في الإهانة والإذلال. وهي صورة مأخوذة من صميم بيئتهم العربية التي يعرفون فيها وسم الأنعام في وجوهها أو في مواضع من أجسادها ليعلم مالكها فلا تختلط بغيرها أو تتعرض للسرقة. فجمع الله في الآية بين الوسم الذي يعبر عن قمة التبعية والخضوع وشدة التمكن، وبين الخرطوم الذي لا يطلق إلا على الحيوانات، ولكن الله أسنده إلى هذا الصنف من البشر تشبيها لهم بحال البهائم في ضلالها، وتشويها لصورهم الإنسية التي خلقهم الله عليها فلم يؤدوا حق الشكر والتوحيد حتى صاروا مساوين للأنعام في رتبتها وقدرها بل هم أضل. إذن، فقد خرج إطلاق لفظ الخرطوم عن معناه الحقيقي وهو ذلك العضو المعروف في وجوه الفيلة خاصة وما شابهها من الحيوانات الذي تستعمله للشرب واقتلاع العشب، إلى إرادة المعنى المجازي وهو التشوه والقبح الذي يُتصور لو امتلك الإنسان خرطوما في وجهه.

ويضاف إلى معنى القبح، معنى الإهانة والذل حيث إن الحيوان الذي يملك خرطوما وجهه دائما منحن إلى الأرض في ذلة وخنوع. أما الإنسان فقد كرمه الله بأن جعل وجهه إلى أعلى تشريفا وتكريما لقدره. وقد سبق في الآيات ورود لفظ (مهين) في قوله تعالى:﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾[15] وهو بذلك يقوي احتمال استعارة الخرطوم للبشر قصد الإهانة والتهكم، فيكون الجزاء من جنس العمل لأن المتحدث عنه لم يترك موضعا إلا أهان فيه النبي صلى الله عليه وسلم وتهكم منه ومن آيات القرآن الكريم فوصفه بالجنون وبالسحر وبالكهانة وبالشعر وغير ذلك.

ويبدو أن هذا العذاب قد ادخره الله له في الآخرة وهو أعلم بحقيقته وكيفيته. وحسبنا من الآية أنها تفيد التهديد والوعيد بالإذلال والإهانة لكل كافر متكبر مكذب.

المطلب الثالث: النظم والتركيب

وقع الاختيار على هذا النموذج التفسيري لبيان همة الشيخ الطاهر بن عاشور واهتمامه البالغ بكشف أساليب النظم القرآني العربي ونفض الغبار عن العديد من الأساليب التعبيرية الجارية في كلام العرب والتي دأب القرآن على استعمالها، لكنها خفيت على المفسرين والناظرين لخفاء موقعها وترك المتأخرين كثيرا من هذه الأساليب الفصيحة، فاهتمام الطاهر بن عاشور بنظم القرآن الكريم أحد أهم منطلقات التفسير لديه للوصول إلى المعنى المقصود وكلما خفي نظم الآية وتركيبها خفي على المفسر معناها وبالتالي سقط في سوء الفهم والتأويل وابتعد بالآية عن القصد وربما انحرف إلى معنى مخالف تماما لمقصود الآية.

ونسوق في هذا الباب نموذجا وهو تفسير الشيخ لقوله تعالى الذي أشكل على المفسرين سواء من حيث معنى الآية أو إعرابها:﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[16].

يقول الشيخ: "موقع هذه الآية دقيق ومعناها أدق وإعرابها تابع لدقة الأمرين...وإعرابها يتعقد إشكاله بوقوع قوله الصابئون بحالة رفع الواو في حين أنه معطوف على اسم إن في ظاهر الكلام...فحق علينا أن نخصها من البيان...ولنبدأ بموقعها فإنه معقد معناها."[17]

يقصد الطاهر بن عاشور بالموقع، موقع الآية بالنسبة لسابقاتها ولا حقاتها من الآيات وما يكون بينها من علاقات تركيبية وسياقية. وهذا أول ما يلوح في منهج التفسير لدى الشيخ. فإنه يبحث أولا عن كل ما يربط

بين الآية وما تقدمها من آيات تركيبيا ومعنويا فيصل بذلك إلى تحديد إعرابها ثم إلى معناها وما اشتملت عليه من دقائق اللغة ونكت البلاغة.

يفترض الطاهر بن عاشور أن تكون الآية جوابا عن سؤال مقدر محذوف متعلق بالآية السابقة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[18]. وهو سؤال عن حال أهل الكتاب الذين لم يدركوا الإسلام وعن مصيرهم. وهو بفعله هذا يسد كل الفراغات المحتملة بين الآيات فمن أسلوب القرآن الحذف بغرض الإيجاز وحمل القارئ على الاجتهاد وإعمال العقل والفكر لفهم ما سكت عنه القرآن.

ويحتمل كذلك أن تكون الآية مؤكدة لآية ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[19] تأكيدا لوعد الله لهم مع زيادة الاهتمام بالمؤمنين وبحالهم في جنات النعيم. ولذلك صدرت الآية بذكرهم أولا لكمال إيمانهم بالله واليوم الآخر والعمل الصالح تنويها بهم وتنبيها لهم من الغرور ومن تسرب الشرك إلى عقائدهم.

وبعد تبيان الشيخ موقع الآية انتقل إلى بيان إعرابها ومعناها.

وأول إشكال يطرح فيها، خبر (إن)، فقد جعل المفسرون جملة (من آمن بالله) خبرا لها وذهبوا في تأويلها مذاهب كثيرة، إلا أن الطاهر بن عاشور يرى أن لا مسوغ لتكرار جملة (من آمن بالله) مع ذكر الذين آمنوا في صدر الآية حيث يشمل الإيمان، الإيمان بالله واليوم الآخر ولذلك وضع تخريجا آخر للآية. وهو أن خبر إنّ محذوف وأن جملة (الذين هادوا) معطوفة على جملة (الذين آمنوا) وهي مبتدأ، وقد عطفت عليها جملة "الصابون" من باب عطف جملة على جملة. وهذا تبرير مجيئها مرفوعة مع أن (إن) تقتضي كونها منصوبة.

في حين ذهب أكثر المفسرين إلى اعتبار "الصابون" مبتدأ خبره محذوف تقديره (كذلك). فيكون تقدير الآية (إن الذين آمنوا والذين هادوا...والصابون كذلك). واستدلوا ببيت ضابي بن الحارث: "وَمَنْ يَكُ أَمْسى بِالْمَدينَةِ رَحْلُهُ فَإنّي وَقَيّارٌ بِها لَغَريبُ."[20]

وهذا في رأي ابن عاشور يفضي إلى اختلاف المتعاطفات في الحكم وتشتيتها. وأما جملة (من آمن بالله)، فهي في نظره مبتدأ ثان و(من) اسم موصول حذف ما يربطه بالجملة السابقة، والتقدير (من آمن منهم) وخبره جملة (فلهم أجرهم) جاء مقترنا بالفاء لشبه الاسم الموصول بالشرط، ومثل له بقوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[21].فاقتران الجملة بالفاء يجعلها خبرا لـــ"من" الموصولية وليست خبر "إن".

وهذا الشاهد الذي استدلوا به لا يصح القياس عليه في رأي ابن عاشور لبعد ما بينه وبين الآية. حيث إن خبر "إن" في البيت اقترن بلام الابتداء(لغريب)، فصح أن يسند إليها بدل إسناده إلى "من" الموصولية. بخلاف الآية الكريمة التي جاء خبر "إن" فيها محذوفا وهو كثير في كلام العرب الفصيح كما ذكر سيبويه في كتابه.

وقد قدر المفسرون تقادير أخرى أنهاها الألوسي إلى خمسة، لكن ابن عاشور يميل إلى ما بينه سابقا، حيث قال: "والذي سلكناه أوضح وأجرى على أسلوب النظم وأليق بمعنى الآية".[22] ومضى في سوق الأدلة والحجج على صحة مذهبه ومنها:

أن لفظ الآية كذلك نزل، وكذلك نطق به النبي صلى الله عليه وسلم وتلقاه المسلمون وكتب في المصاحف وهم عرب خلص، مما يدل على أنه أصل في معرفة أسلوب من أساليب استعمال العرب في العطف وإن كان غير شائع، لكنه يجمع بين الفصاحة والإيجاز حيث أتى نظم الآية مشتملا على إن واسمها وخبرها محذوفا ثم جيئ بمعطوف غريب مرفوعا على الابتداء، ابتداء جملة جديدة ليكون العطف هنا عطف جمل لا عطف مفردات،

فيكون تقدير الخبر بحسب سياق الكلام وهذا شائع في كلام العرب وفي كتاب الله، ومنه قوله تعالى:﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾،أي ورسوله كذلك بريئ منهم.

إن+(الذين آمنوا)+و(الذين هادوا)+و(الصابون + الخبر مقدر)+و(النصارى)+(خبر إن محذوف)

اسم إن معطوف مبتدأ خبر مقدر معطوف

يرى ابن عاشور أن الصابين أبعد عن الهدى من اليهود والنصارى قبل مجيء الإسلام لأنهم عكفوا على عبادة الكواكب لذلك جيء بلفظهم مرفوعا للتنبيه على أنهم تحق لهم النجاة لو آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحا شأنهم شأن اليهود والنصارى وهذا موجب تقديمه على خبر "إن" ورفعه ليشملهم عفو الله فلو جاء منصوبا لكان عطف اسم على اسم ولدخل في حكم اسم "إن".

فالاستعمال في هذه الآية يجمع بين مقتضيي حالين وهما الدلالة على غرابة المخبر عنه في هذا الحكم والتنبيه على تعجيل الإعلام بهذا الخبر،ثم قارن بين الآية ونظيرها في سورة الحج حيث قدم لفظ "الصابين" على النصارى وجيء به منصوبا بمقتضى حال تعجيل الإعلام بشمول فصل القضاء بينهم وأنهم متساوون جميعا أمام عدل الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِئِينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[23]

وأما الإيمان في الآية فمعناه الدوام على الإيمان وهم الذين لم يغيروا أديانهم بالإشراك وإنكار البعث، وأما العمل الصالح فهو المنجاة من الخوف والحزن، وأول العمل الصالح تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان بالقرآن وامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

هذا التخريج الذي بناه الشيخ الطاهر للآية بناء على معنى (الصابون)، يختلف عن غيره من التفاسير السابقة، حيث يرجع الاختلاف بينها جميعا في تفسير هذا اللفظ الذي حمله المفسرون على محامل عدة مختلفة بل متعارضة أحيانا.

يقول ابن كثير في تفسيره:"وأظهر الأقوال، والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه : أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين ، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه ؛ ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئي ، أي : أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك. وقال بعض العلماء :الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي ، والله أعلم".[24]

وعليه، فإن تأويل ابن عاشور يتعارض مع هذا القول، لأنه اعتبر الصابين مشركين من عبدة الكواكب، فيما ذهب علماء كثر إلى أنهم أصحاب الفطرة الذين لم تبلغهم رسالة من الرسالات السماوية. ومهما يكن من أمرهم، فإن الله تعالى جاء بلفظهم مرفوعا خروجا عن قاعدة تبعية المعطوف للمعطوف عليه في الإعراب لتناسب غرابة العلامة غرابة اللفظ أيضا نظرا لغموضه وانبهامه.

وعموما، فالآية صريحة بأن الله تعالى يدخل في رحمته من آمن به وباليوم الآخر إيمانا حقا، وعمل صالحا من المسلمين أو أصحاب الديانات السماوية وحتى من لادين لهم الذين آمنوا وأسلموا وتحولوا عن الشرك إلى التوحيد وتأويل ابن عاشور غائص في التعقيد على ما يبدو.

ثانيا: الدراسة الأسلوبية في تفسير ابن عاشور

نال البحث الأسلوبي حظا وافرا من اهتمام الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره بالقدر الذي يصعب معه إحصاء الوقفات الأسلوبية التي ضمنها المفسر كتابه، فكلما لاح له ملمح من ملامح العناية بالأسلوب في آية من الآيات القرآنية، سعى إلى الكشف عنه وإبراز فاعليته إلى جانب المشيرات السياقية في خدمة المعنى وتأديته

أداء وظيفيا لا مجرد الوقوف عند المستوى الفني الإمتاعي للخطاب إيمانا منه أن العناصر اللغوية تتضافر مجتمعة من أجل بناء المعنى كما أنها تختار بدقة وسط مجموعة لامتناهية من البدائل الأسلوبية للتعبير عن القصد ولكنها قد تخفى على القارئ العادي الذي لا يمتلك آليات القراءة العميقة والموسعة لما يصطبغ به الأسلوب من أصباغ مختلفة كالحذف والعدول والتقديم والتأخير والتكرار، وغيرها من المباحث التي اهتمت بها البلاغة العربية والنحو واللسانيات الوظيفية والتحويلية... و كل الحقول المعرفية التي تتداخل مكوناتها في دراسة الخطاب."**الأسلوبية تتناول الانزياحات ليست فقط كمعطيات شكلية بنائية بل لأنها تترجم عن أصالة روحية وعن قدرة إبداعية منفردة ، وهي التي ينبغي على المنهج النقدي أن يكتشفها.**"[25]

وتبقى مهمة الناقد البصير إماطة الحجاب عن هذه الجوانب الأسلوبية وإظهار ما خفي منها بما يمتلك من عدة معرفية ولغوية ونقدية، وهذه من أهم مستويات التفسير التي أشار إليها الطاهر بن عاشور في مقدمة تفسيره وهي بيان نكت من الأسلوب القرآني مما غفل عنه المفسرون الأوائل،حيث قال:"**... وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ، ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال... فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير ، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه همم النحارير ، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير ، ففيه أحسن ما في التفاسير ، وفيه أحسن مما في التفاسير**"[26].

وهو _وإن لم يصرح بذلك_ فإن قراءته التفسيرية التأويلية للقرآن الكريم هو من صلب الدراسة الأسلوبية بما اشتملت عليه من بحث في مختلف الأساليب وما يلحقها من تغييرات وانزياح وعدول وحذف وإضافة وتقديم وتأخير واختيار.. وغير ذلك مما يتلون به الأسلوب. وسنحاول – بإذن الله – في هذا القسم تسليط الضوء على بعض هذه الجوانب التي انفرد فيها الشيخ الطاهر بآراء خاصة وقراءات جديدة لا تنفك عن مراعاة السياق

العام للآيات الكريمة. ولا ننسى التنبيه على أن هذا كله ينصب في إطار الرؤية التجديدية التي تبناها المفسر رحمه الله في قراءة النص الشرعي وتأويله وفهم أحكامه وما يرتبط بها من مقاصد عظمى.

المطلب الأول: الاختيـــــــــــار

اهتم النقاد العرب القدامى بقضية الاختيار في حديثهم عن الصناعة الأدبية شعرا ونثرا وعزا كثير منهم الجودة إلى حسن اختيار الألفاظ الملائمة للمعاني المناسبة عناية منهم بالوظيفة الشعرية للغة إلى جانب المستوى الإبلاغي. فلا تتحقق الوظيفة الإبلاغية على أكمل وجه حتى تتم مراعاة الخصائص الأسلوبية بما يحقق الانسجام والتناغم بينها وبين المقام التخاطبي والسياق الذي يجري فيه الخطاب. فهذان العنصران وجهان لعملة واحدة لا يقوم الخطاب إلا بهما.

وقد ورد مفهوم الاختيار عند الجاحظ و ابن رشيق القيرواني وحازم القرطاجني وابن الأثير وغيرهم في معرض حديثهم عن الصناعة الأدبية الشعرية منها والنثرية، باعتباره شرطا من شروط هذه الصناعة.

والاختيار لغة: مصدر اختار المزيد الثلاثي من فعل "خار الشيءَ واختاره: انتقاه. والاختيار الاصطفاء وكذلك التَّخَيُّرُ. واختار مما يتعدى إِلى مفعولين بحذف حرف الجر، تقول: اخترته من الرجال واخترته الرجالَ.وفي التنزيل العزيز: واختار موسى قومَه سبعين رجلاً لميقاتنا".[27]

ويعرف اصطلاحا بأنه: "من أهم مبادئ علم الأسلوب لأنه يقوم عليه تحليل الأسلوب عند المبدع، ويقصد بها العملية التي يقوم بها المبدع عندما يستخدم لفظة من بين العديد من البدائل الموجودة في معجمه فاستخدام هذه اللفظة من بين سائر الألفاظ هو ما يسمى "اختيار" وقد يسمى "استبدال" أي أنه استبدل بالكلمة القريبة منه غيرها لمناسبتها للمقام والموقف"[28]

وقد تبدو هذه المصطلحات شديدة التداخل والتقارب في المفهوم (الاختيار والاستبدال والعدول)، لكنها تصب جميعها في مصب الدراسة الأسلوبية والوظيفة التأثيرية للغة التي تكتسبها من العناية بالأسلوب ووضع كل مفردة أو جملة في المكان الذي يليق بها ويستدعيها بشدة أكثر من غيرها.

تكرر لفظ الاختيار في تفسير الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" مرارا، اهتماما منه ببيان بلاغة الاختيار في القرآن الكريم سواء في ألفاظه أو معانيه أو أساليبه أو صيغ مفرداته أو غير ذلك...وقد وقعت في كتابه على نص طويل للسكاكي اعتنى فيه كثيرا بظاهرة الاختيار ونال استحسان ابن عاشور، فهو خير ما نتطرق لدراسته واستنباط ما فيه من ملاحظ أسلوبية خادمة للمعنى.

يقول في تفسير قوله تعالى:﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[29] نقلا عن السكاكي رحمه الله:"...واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح. ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان،... وأما النظر فيها من حيث علم المعاني، وهو النظر في إفادة كل كلمة فيها، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها، لذلك أنه اختير "يا" دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال وأنها دالة على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة.. وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به... واختير ابلعي على ابتلعي لكونه أخصر، ولمجيء حظ التجانس بينه وبين أقلعي أوفر. وقيل ماءك بالإفراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأتي عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت.. وإنما لم يقل ابلعي بدون المفعول أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن...

ثم إذ بين المراد اختصر الكلام مع أقلعي احترازا عن الحشو المستغنى عنه، وهو الوجه في أن لم يقل :قيل: يا أرض ابلعي ماءك فبلعت، ويا سماء أقلعي فأقلعت... ثم قيل : بعدا للقوم الظالمين دون أن يقال: ليبعد القوم،

طلبا للتأكيد مع الاختصار وهو نزول بعدا منزلة ليبعدوا بعدا، مع فائدة أخرى وهي استعمال اللام مع) بعدا (الدال على معنى أن البعد يحق لهم.ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرسل."[30]

إن إيراد الطاهر بن عاشور لهذا النص متخللا تفسيره للآية الكريمة، يبرز اهتمام العلماء من قبله بالكشف عن نكت البلاغة في القرآن الكريم سواء ما اتصل منها بالبيان أو البديع أو المعاني، وإن مهمة الشيخ التي أبداها في مقدمة التفسير إظهار ما في التفاسير والكتب السابقة من نكت القرآن الكريم والزيادة عليها. وإن الباحث ليقف وقفات مع هذا النص لصاحب المفتاح، لينظر كيف اعتنى السكاكي بمختارات الألفاظ في الآية الكريمة التي استوقفت ببلاغتها وفصاحتها جمهور المفسرين بتناسب ألفاظها ومعانيها.

فالاختيار في الآية واقع من عدة زوايا إضافة إلى ما ورد في نص السكاكي وإلى ما تفضل به الطاهر بن عاشور لمناسبة الموقف المحكي. من جهة الألفاظ والصيغ والتراكيب، حيث ناسب لفظ (البلع) المسند إلى الأرض؛ معنى السرعة في حدوث المعجزة وجفاف الماء، وليس هناك فعل أبلغ منه وأدق في التعبير عن المعنى وتصوير الحالة. ولذلك أوثرت هذه الصيغة على صيغة الافتعال (ابتلع) لما فيها من تكلف الفعل وبطء وقوع الحدث. كما ناسب لفظ (الإقلاع) المسند إلى السماء معنى السرعة كذلك في احتباس المطر وانجلاء الغيوم وصفاء الجو ومعنى التغير من حال إلى حال بأمر الله تعالى.

ومن جهة أخرى اختير الإفراد على الجمع في قوله (ابلعي ماءك) للتقليل لمناسبة إضافة الماء إلى الأرض إضافة معنوية دلالة على أن الله باسط قدرته على السماء والأرض وما بينهما فلا شيء من مخلوقاته ينازعه الكبرياء والجبروت، وإن اتصف بعضها بالقوة والعظمة، فهي تبقى خاضعة لمشيئة القاهر فوق عباده ومؤتمرة بأمره. فالماء المقصود ماء تلك البقعة من الأرض وحدها دون سائر المياه التي تغطي ثلثي مساحة الكرة الأرضية.

واختير البناء لما لم يسم فاعله على البناء للمعلوم في (قيل وغيض) ليس جهلا بالفاعل وإنما تعظيما لمقامه وإظهارا لوحدانيته فليس غيره قادرا على توجيه الأمر للسماء والأرض فتستجيبان طوعا وفورا لأمره. فأفاد هذا الاختيار التهويل للإشعار بهول ما أصاب قوم نوح وأن الله سخر كل جنوده العلوية والسفلية لإهلاكهم، وهي نفسها الجنود التي سخرت لإنجاء نوح ومن معه، حيث جُعل الماء جنديا للإنجاء وللإهلاك، لحمل السفينة إلى البر ولإغراق القوم الظالمين.

واختير الإضمار بدل الإظهار في قوله (استوت) لظهور الفاعل والعلم به وهو السفينة. ولمراعاة أسلوب الآية وجوها العام القائم على الإيجاز والسرعة في إنجاز الوعد والوعيد. واختير المصدر على الفعل في قوله (بعدا للقوم الظالمين) لزيادة التأكيد على استحقاقهم الهلاك بما ظلموا أنفسهم وبتكذيبهم الرسول.

هكذا يتضح أن الحدث الذي تسرده الآية الكريمة يستدعي عناصر لغوية وأسلوبية خاصة ومختارة من بين إمكانات أخرى متعددة مساوية لها في المعنى، ولكنها ليست مكافئة لها أسلوبيا في التعبير عن الموقف بما يقتضيه الحال من إيجاز وسرعة وقوة. وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم الاختيار لا يفتح الباب على مصراعيه أمام المتكلم في استعمال اللغة كما يشاء، ذلك أن قيود النظام اللغوي النحوية والأسلوبية تفرض على المتكلم اختيارات معينة ولا تتيح له الحرية المطلقة في الاختيار. ويزداد الأمر تقييدا عندما تؤخذ المعطيات السياقية بعين الاعتبار.

المطلب الثاني: العـــــــــدول

ورد هذا المفهوم في النحو والبلاغة العربيين وكذا عند النقاد بمصطلحات مختلفة لكنها تحيل على المعنى نفسه، وهو الانحراف الأسلوبي والخروج عن النظام المعياري للغة. سواء بالعدول من الحقيقة إلى المجاز أو من التأخير إلى التقديم أو من الجملة الاسمية إلى الفعلية أو من المضي إلى الحضور أو من الجمع إلى الإفراد ...وغيرها مما عرف في كلام العرب وجرت عليه سننهم. وورد في قوله تعالى:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[31] وفي قوله:﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[32]،أي يشركون.

وفي لسان العرب :"عَدَلَ عن الشيء يَعْدِلُ عَدْلاً وعُدولاً: حاد، وعَدَلَ إليه عُدُولاً: رجع.وعَدَل عنه يَعْدِلُ عُدولاً إذا مال كأنه يميل من الواحد إلى الآخر."[33]

فالمعنى اللغوي للفظ العدول سواء في الآيتين الكريمتين أو في معاجم اللغة يحيل مباشرة على الانصراف والتحول عن الشيء إلى سواه. ففي اللفظ القرآني يعني التحول عن عبادة الله وحده إلى الإشراك به والانصراف إلى عبادة الطواغيت.

وفي تراثنا العربي ورد مفهوم العدول عند اللغويين والبلاغيين والنقاد والمفسرين وربطه كل منهم بعناصر معينة كالمجاز والصياغة والسياق وغيرها، لكن المجال هنا يضيق عن استعراض كل الآراء والأقوال لأننا بصدد الدراسة التطبيقية، ومع ذلك فلا بأس بإلقاء نظرة خاطفة على تصور بعض النقاد لمفهوم العدول لتتضح الصورة.

"...فللنقل علة جمالية هي التصرف في الكلام أي إنشاء أساليب جديدة ليست هي الأصل ولكنها منقولة أو متحولة عنه. وهذا ما عناه الزمخشري بقوله إن صور التمييز "مزالة عن أصلها" تحقيقا "لضرب من المبالغة" وهذا التحول أو الإزالة ينادي أصله أو يدل عليه. "فالأصل وصف النفس بالطيب والعرق بالتصبب والشيب بالاشتعال" حين نقول: "طاب نفسا وتصبب عرقا واشتعل الرأس شيبا". فهؤلاء النحويون أدركوا معنى التحويل بأفهام مختلفة هي العدول عند سيبويه والنقل عند الصيمري والإزالة عند الزمخشري..."[34]

المقصود بالنقل في هذا النص، العدول. ورغم تعدد الاصطلاحات، يجمع كل من تطرق لهذه الظاهرة من نحاة وبلاغيين أنه يلتجأ إلى العدول لغرض معنوي بدرجة أولى، أي إن نقل الجملة من تركيبها الأصلي إلى

تركيب آخر يراد منه التعبير عن معنى إضافي لا يتيحه التركيب الأول وغالبا ما يكون هذا المعنى المقصود هو المبالغة. وقد يحدث العدول أثرا فنيا جماليا أيضا.

وقد تحدث العلماء عن العدول في كتاب الله بتحفظ شديد فأطلقوا عليه مصطلحات مختلفة كالاصطفاء أو الاختيار الذي سبق الحديث عنه. ومع ذلك نجد الطاهر بن عاشور يتحدث عن العدول في القرآن الكريم ويصرح بلفظه في مواطن كثيرة من تفسيره (التحرير والتنوير) ولا يكتفي بالإشارة إليه بل يسعى إلى استجلاء ما فيه من فائدة، أو نكتة بلاغية تستنبط عند تأمل السياق، ومحاولة الوصول إلى المعنى الثاوي في باطن الآيات غير الذي يظهر للقارئ أول الأمر. فمنهج الشيخ يعتمد على التشريح والتجزيء، تجزيء بنية الآيات الكريمة جزءا جزءا وردها إلى أصلها اللغوي المتعارف عليه في كلام العرب ليعلم المعنى الإضافي الذي اكتسبته بعد العدول. ولا يخفى ما في هذا العمل الشاق من جهد ومشقة. وهذا نموذج أشار فيه الطاهر بن عاشور إلى ظاهرة العدول:

قال تعالى:﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾[35]

يقول ابن عاشور: "عقب أمرهم بالتقوى بذكر ما وعد الله به المتقين ترغيبا في الامتثال، وعطف عليه حال أضداد المتقين ترهيبا. فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا. ومفعول وعد الثاني محذوف تنزيلا للفعل منزلة المتعدي إلى واحد.وجملة لهم مغفرة مبينة لجملة وعد الله الذين آمنوا، فاستغني بالبيان عن المفعول، فصار التقدير :وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات مغفرة وأجرا عظيما لهم.وإنما عدل عن هذا النظم لما في إثبات المغفرة لهم بطريق الجملة الاسمية من الدلالة على الثبات والتقرر"[36].

في هذه الآية الكريمة عدل الأسلوب القرآني في نظم الكلام من اللفظ المفرد إلى الجملة الاسمية. حيث إن نظم الآية يقتضي مجيء المفعول به اسما مفردا كما قدره ابن عاشور (**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات مغفرة وأجرا عظيما لهم**).ولكن عدل عنه إلى الجملة (لهم مغفرة وأجر عظيم).وذهب ابن عاشور في تعليل ذلك إلى اعتبار الجملة الاسمية أبلغ في التعبير عن ثبات المغفرة وتقررها للذين آمنوا وعملوا الصالحات. نظرا لأن الجملة الاسمية يراد بها التعبير عن حالة الثبات والدوام. غير أن نظير هذه الآية في سورة الفتح جاءت خلاف ما في هذه، حيث صرح بالمفعول به وجاء اسما ظاهرا في قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾[37].

وهنا لا بد من البحث عن الفروق بين الآيتين التي جعلت النظم يختلف من واحدة لأخرى. وأول ما يظهر أن في آية الفتح زيادة تخلو منها آية المائدة وهي الجار والمجرور(منهم) وهذه الزيادة كفيلة بإضافة معنى زائد أو مختلف عن نظيرتها وبالتالي تغير تركيب الآية من المفرد إلى الجملة أو العكس.

لقد تحدثت آية المائدة عن الذين آمنوا والذين عملوا الصالحات مطلقا دون زيادة (منهم) فكانت المغفرة ثابتة في حقهم للزومهم الإيمان ودوامهم على فعل الصالحات وأعمال البر والخير دون استثناء ولذلك كان التناسب بين ثباتهم على ذلك والثبات الذي تحيل عليه الجملة الاسمية. أما آية الفتح فقد ذكرت كذلك الذين آمنوا والذين عملوا الصالحات مع تقييد الكلام بقوله (منهم) وإذا اعتبرنا أن (مِن) هنا للتبعيض فهذا يعني أن من الذين آمنوا من عجزوا عن عمل الصالحات أو خلطوا إيمانهم بالمعاصي والسيئات، فجاء نظم الآية مخالفا للأولى. وأرى _والله أعلم_ أن مجيء المغفرة والأجر العظيم مفردين دون الجملة _قياسا على الآية السابقة_ يدل على أن مقدار الجزاء بين هؤلاء وأولئك متفاوت.

وبالنظر إلى سياق الآيتين، نجد أن بينهما اختلافا واضحا من شأنه أن يساعد في تفسير اختلاف التركيب بينهما مع أنه يبدو في ظاهره واحدا. ففي آية المائدة الكلام يشمل عموم الذين آمنوا وعملوا الصالحات من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة لذلك جاءت الآية تفيد العموم والشمول كقانون إلاهي ينص على أن جزاء الإيمان وعمل الصالحات المغفرة والأجر العظيم. أما آية الفتح فتخص بالحديث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين سبق ذكرهم في الآية السابقة:﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا...**﴾[38] وذلك مبرر ذكر شبه الجملة (منهم) لإفادة التخصيص وأن الأمر يهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص فلابد من هذه الزيادة للتفريق بين الحديث عن سائر المؤمنين وبين الحديث عن الصحابة رضي الله عنهم لسابقتهم في الإسلام وبلائهم فيه وشهودهم المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لنصرة هذا الدين.

وقد يكون اختلاف التركيب بين الآيتين مرده إلى مراعاة المجاورة بين المركبات لتحقيق سلاسة النطق، حيث يصعب النطق بالآية لو جاءت (منهم) و(لهم) متجاورتين (**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم لهم مغفرة وأجر عظيم**).فلذلك عدل عن الجملة الاسمية إلى الاسم المفرد لتجنب تكرر الضميرين وتقاربهما.

المطلب الثالث: التقديم والتأخير

من بين المباحث التي اهتمت بها الدراسة الأسلوبية، قضية التقديم والتأخير في الجملة ومدى فاعليتها في بناء المعنى المناسب للموقف المعبر عنه وأدائه أداء بلاغيا يجمع بين الإمتاع والإقناع. وقد عد التقديم والتأخير مبحثا من مباحث النحو العربي فيما يرتبط بتركيب الجملة وترتيب عناصرها كالتقديم والتأخير بين الفاعل والمفعول والمبتدإ والخبر وغير ذلك. وهذا لا حاجة لنا به في هذا المقام لكثرته في كتاب الله ودواعيه معروفة لدى أهل النحو فلا وجه لتكرارها. وهو أيضا مبحث من مباحث علم المعاني بوصفه فرعا من فروع البلاغة العربية لما له من صلة وثيقة بالنحو. يقول عبد القاهر الجرجاني رحمه الله متحدثا عن فائدته: " **هذا باب كثير الفوائد ،**

جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك ، أن قدم فيه شيء وحول اللفظ من مكان إلى مكان."[39]

وقد اهتم الطاهر بن عاشور في تفسيره بظاهرة التقديم والتأخير في تفسيره، وحاول جهده إبراز ما في الآيات التي وقع فيها تقديم وتأخير وعدل عن أحدهما إلى الآخر من استخدامات بلاغية وإفادات دلالية باعتبار أن كل زيادة في مبنى الجملة أو تغيير لرتبة عناصرها يستتبع بلا ريب إيراد معنى مغاير لمعناها قبل الزيادة أو التغيير.

ومن مهمات الناقد (المفسر) البحث عن المعنى الثاوي وراء المعنى الظاهر للجملة، وهو ما عبر عنه عبد القاهر الجرجاني بمعنى المعنى. وهذا العمل ليس من السهولة بمكان فهو يتطلب بصيرة ناقدة وقادة ومعرفة واسعة بعلوم اللغة وقدرة على تجميع كل المعطيات اللغوية والسياقية ممن يقدم على هذا العمل الجليل.

و لم يكتف ابن عاشور بالبحث عن التقديم والتأخير بين المركبات النحوية للجملة، وإنما مضى يبحث في مناسبة تقديم كلمة وتأخير أخرى في موضع من القرآن وتغير الترتيب بينهما في موضع آخر ارتباطا بالسورة وسياق ورود الآيات وكذلك الشأن بالنسبة لتقديم الجمل بعضها على بعض. وهذا ما يهمنا الكشف عنه في بحثنا. فمن أهم خصائص المنهج النقدي والتفسيري لديه المقارنة بين ما اشتبه من آيات القرآن الكريم في لفظه واختلف في موقعه وهو كثير في كتاب الله تعالى ووجه من أوجه الإعجاز البياني والبلاغي فيه، حيث تتفق الآيات لفظا وتركيبا أحيانا كثيرة لكنها تختلف في مناسبتها وسياقها من سورة لأخرى. وهذه المقارنة تسمح بالكشف عن نكت ولطائف قرآنية خفية انفرد بها الأسلوب القرآني البديع ودقت عن كثير من العلماء والمفسرين. ولكن ابن عاشور حاول جهده استنباط ما بين هذه المتشابهات من اختلاف يستوجبه سياق السورة بأكملها لا

الآية بمفردها. وهذه النظرة المتكاملة الدائرية للسورة تساعد على فهم معنى الآية الواحدة وعلاقتها بأول السورة وآخرها.

وقد تختلف الأشباه والنظائر في ترتيب بعض أركانها، فيكون لزاما على القارئ المتدبر محاولة إدراك مسوغات اختيار ترتيب معين في آية والعدول عنه إلى ضده في آية أخرى. كالبحث عن الفرق في ترتيب الألفاظ بين قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.[40]

وبين قوله في سورة النساء:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[41]

والأمثلة على ذلك كثيرة في كتاب "التحرير والتنوير" نكتفي بإيراد هذا النموذج. وهو تتمة نص سابق سقناه في معرض الحديث عن الاختيار: "وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل، فذلك أنه قد قدم النداء على الأمر، فقيل: يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي دون أن يقال :ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء، جريا على مقتضى اللازم فيمن كان مأمورا حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى قصدا بذلك لمعنى الترشيح.ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء وابتدئ به لابتداء الطوفان منها، ونزولها لذلك في القصة منزلة الأصل، والأصل بالتقديم أولى، ثم أتبعها قوله :وغيض الماء لاتصاله بغيضية الماء وأخذه بحجزتها، ألا ترى أصل الكلام :قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ماءها ويا سماء أقلعي عن إرسال الماء فأقلعت عن إرساله، وغيض الماء النازل من السماء فغاض، ثم أتبعه ما هو المقصود من القصة وهو قوله تعالى :وقضي الأمر أي أنجز الموعود ..ثم أتبعه حديث السفينة وهو قوله :واستوت على الجودي، ثم ختمت القصة بما ختمت..."[42]

في هذه الآية نكت بلاغية أشار إليها الطاهر بن عاشور وفصل فيها السكاكي من قبل، ومما توقف عنده مسألة التقديم والتأخير بين جملها وأساليبها والحكمة من تقديم بعضها على بعض ومحاولة البحث عن مسوغات أسلوبية وسياقية لكل موقع تأخذه المفردة أو الجملة في الآية الكريمة.

فمن تلك اللطائف البلاغية تقديم النداء على الأمر وهما أسلوبان إنشائيان طلبيان (يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي) وذلك بغرض التنبيه أولا وإثارة انتباه السامع لما يأتي، واستعظاما للأمر الموجه من الله تعالى إلى الأرض والسماء فتصدعان بالأمر. ويضاف إلى ذلك إيقاع الآية الذي يحقق بهذا الترتيب سهولة في النطق وتوافقا بين الفعلين "ابلعي" و"أقلعي" وانسجاما بين المتعاطفات.

كذلك قدمت الأرض على السماء في النداء والأمر قال السكاكي لابتداء الطوفان منها وما أظن ذلك، لأن في الآية قبل هذه ذكرت السماء أولا فقال:﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[43] وهذا يقتضي ابتداء الطوفان من السماء مراعاة للترتيب في الآية. أو بالضرورة مطلق الجمع والاشتراك في الحدث والزمن معا بوجود واو العطف، فتكونا قد صدعتا بالأمر في الوقت نفسه. ويؤكد ذلك تتمة الآية:

﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي إن التقاء ماء السماء وماء الأرض كان في لحظة واحدة. فلذلك يستبعد قول السكاكي أن تقديم الأرض في الآية مرده ابتداء الطوفان منها.

أرى والله أعلم أن الله قدم توجيه الأمر إلى الأرض لتبلع ماءها وتجف لتيسير استقرار السفينة في البر، لأن محلها الأرض فكان استقرارها ورسوها واستواؤها منوطا أولا بجفاف الأرض ثم في مرحلة ثانية بإمساك السماء عن الإمطار. وأتبع الله ذلك بقوله:(وغيض الماء) مع أنه كان بالإمكان الاكتفاء ببلع الأرض للماء وفيه تمام المعنى. ولكنها زيادة يراد منها بيان منتهى غور الماء في باطن الأرض دفعة واحدة وفي لحظة وجيزة على كثرته

بعد أن كان طوفانا وفي ذلك إظهار لعظمة الخالق القاهر الذي يقول للشيء كن فيكون، ولقوة المعجزة التي أيد الله بها نوحا عليه السلام. كما أن بناء الفعلين "غيض" و "قضي" للمفعول يدل على سرعة انقضاء الحدث وجفاف الأرض كأن لم يكن بها ماء.

المطلب الرابع: الحـــــــذف والزيادة

- الحذف

الحذف ضد الذكر، وهو من أبواب النحو والبلاغة العربيين التي استفاض العلماء في الحديث عنها وإظهار مزيتها البلاغية والأسلوبية. فهذا سيبويه تحدث في مواضع متفرقة من كتابه عن الحذف وبين السبب الذي ألجأ العرب إليه، وأن الذي دفعهم إلى ذلك، إما طلب الخفة على اللسان، وإما اتساع الكلام والاختصار واشترط في المحذوف أن يكون معلوما لدى السامع، وأنه سيتفطن إليه لدلالة الكلام عليه.

وقال عنه عبد القاهر الجرجاني: "**هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون بيانًا إذا لم تبن.**"[44]

في هذا النص يعلي الجرجاني من شأن الحذف ويعتبره من أبواب الفصاحة والبيان، بل إن البيان يتحقق عنده بالاقتصاد في الذكر والإبانة أو تركهما. ويشبهه بالسحر لأنه يخفى على غير أهل الفصاحة والبلاغة من المتخصصين ولذلك وصفه بأنه دقيق المسلك لطيف المأخذ لا يسلكه كل الناس ولا يدرك مواطنه إلا المتضلع في أسرار اللغة ودقائقها الخفية. ما أن سلوك هذا المسلك محفوف بالمخاطر حيث يتوجب على من يقصد إليه أن يكون كلامه موجزا من غير التباس يحصل للسامع أو غموض في المعنى أو تقصير في الدلالة بحيث يكون في الكلام ما يدل على المحذوف ويسهل على المتلقي تفسيره ومعرفته. وهذا مسلك القرآن الكريم حيث يكثر فيه

الحذف بشتى أنواعه التي تحدث عنها البلغاء سواء تعلق الأمر بحذف الحروف أو المفردات أو الجمل من غير إخلال بالمعنى المقصود.

وقال الطاهر بن عاشور في تفسيره: "ومن أبدع الأساليب في كلام العرب الإيجاز وهو متنافسهم وغاية تتبارى إليها فصحاؤهم، وقد جاء القرآن بأبدعه،...ولولا إيجاز القرآن لكان ما يتضمنه من المعاني في أضعاف مقدار القرآن، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ويزيد عن تبصره،...وأعد من أنواع إيجازه إيجاز الحذف مع عدم الالتباس، وكثر ذلك في حذف القول، ومن أبدع الحذف قوله تعالى :(في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر)المدثر: (40- 43) أي يتذاكرون شأن المجرمين فيقول من علموا شأنهم سألناهم فقلنا ما سلككم في سقر...ومنه حذف المضاف كثيرا كقوله تعالى :(ولكن البر من آمن بالله).البقرة: (177). وحذف الجمل التي يدل الكلام على تقديرها نحو قوله تعالى: (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) الشعراء: (63) إذ التقدير فضرب فانفلق. ومن بديع الإيجاز في القرآن وأكثره ما يسمى بالتضمين، وهو يرجع إلى إيجاز الحذف، والتضمين أن يضمن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر ويشار إلى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته من حرف أو معمول فيحصل في الجملة معنيان."[45]

لعل القصد من وراء الإيجاز الذي يسلكه القرآن الكريم، إثارة انتباه القارئ وتحريك قدراته الذهنية واللغوية لإدراك المعاني الثاوية خلف المعاني الظاهرة للآيات الكريمة. وهذا يفتح الباب واسعا أمام التأويلات غير المتناهية والمعاني غير المحصورة التي يفيض بها القرآن الكريم. وهو ما أفرز هذا العدد الهائل من التفاسير التي يختلف بعضها عن بعض في مسائل كثيرة.

ونقف مع نموذج للحذف كثير الاطراد في كتاب الله تعالى وهو حذف جواب. ومثاله قوله عز وجل في سورة النور:﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.[46]

يقول الطاهر بن عاشور: "وجواب (لولا) محذوف لقصد تهويل مضمونه فيدل تهويله على تفخيم مضمون الشرط الذي كان سببا في امتناع حصوله). وحذف جواب لولا للتفخيم والتعظيم وحذفه طريقة لأهل البلاغة، وقد تكرر في هذه السورة وهو مثل حذف جواب(لو)."[47]

جاءت هذه الآية عقب آيات اللعان : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ وَالْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[48]

واللعان لغة: مصدر لاعَنَ، مأخوذ من اللعن وهو الطرد والإبعاد.

وشرعاً: "شهادات مؤكدات بالأيمان، مقرونة باللعن من جهة الزوج وبالغضب من جهة الزوجة، قائمة مقام حد القذف في حق الزوج، ومقام حد الزنا في حق الزوجة. وسُمِّي اللعان بذلك؛ لقول الرجل في الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ولأن أحدهما كاذب لا محالة، فيكون ملعونا"[49].

وقد شرع اللعان حفظا للأعراض والفرش من اختلاط الأنساب، وفصلا بين الزوجين في قضية رمي الزوج زوجته بالزنا ما لم يأت بأربعة شهداء. كما أن هذا الحكم قنن سلوك الزوج تجاه من يجده في وضع مخل مع زوجته لأن دوافع الغيرة والأنفة قد تفضي به إلى ارتكاب جريمة قتل في حقهما. كما جاء في حديث سهل بن سعد رضي الله أن رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: "يا رسول الله، أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله أم كيف يفعل؟ فأنزل الله في شأنه ما ذكر في القرآن من أمر المتلاعنين. فقال

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد قضى الله فيك وفي امرأتك» قال: فتلاعنا في المسجد وأنا شاهد. وفي رواية: فتلاعنا، وأنا مع الناس عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". [50]

فلم يترك الإسلام هذا الأمر لمشيئة الأهواء والغرائز البشرية وإنما قدم الحل الأمثل لحفظ الأنفس من الهلاك. وفيه كذلك فرصة للتوبة من الذنب المرتكب من جانب الزوج أو الزوجة سواء تعلق الأمر بالقذف أو الزنا.

ولذلك أتبع الله الآيات بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ محذوف الجواب ليذهب السامع كل مذهب في تأويل الجواب المحذوف بما يتناسب مع سياق الآيات. ومن تلك التأويلات أن الله شرع اللعان رحمة بعباده لفض الخصومة بين الزوجين دون اعتداء أحدهما على الآخر واستباحة الدماء. ومنها أيضا أن الله شرع التوبة فضلا منه ورحمة لمن وقع في حد من حدود الله، ولولا ذلك لهلك المرء بوقوعه في الفاحشة واستحق عقوبة الدنيا والآخرة. ومنها أن التوبة جاءت مقرونة بحكمة المولى عز وجل الذي اقتضت حكمته تشريع هذا الحكم بين الزوجين وما يستتبعه من أحكام كالتفريق المؤبد بينهما وإلحاق الولد بأمه، كل ذلك لأجل صلاح المجتمع وتطهيره من المفاسد وحماية الأعراض من الفواحش. فيكون تقدير الجواب في كل ذلك:(ولولا فضل الله عليكم ورحمته لسفك بعضكم دماء بعض ولَلَحِق بكم العار أبد الدهر ولبُؤتم بخزي الذنب وعقوبته في الدنيا والآخرة ولكن الله تواب على عباده حكيم في تدبير أمورهم...) والله أعلم.

- الزيـــــــــادة (الإضافة)

هي أحد مفاهيم الأسلوب، تأتي في مقابل الحذف، وتكون بإضافة عناصر لغوية إلى التركيب قد يظن من زاوية تركيبية أنها زائدة عن الحاجة وأنها من باب الإطناب والتوسع في الكلام. ولكن التحليل البلاغي والأسلوبي يقول غير ذلك، إذ يعتبر كل زيادة لا تخلو من فائدة جمالية تضيف للمعنى الأصلي معنى جديدا.

"والإضافة هنا تعني إضافة سمة جمالية أو بمعنى أوضح تجميلية إلى معنى أصلي معروف من قبل. وهذا المفهوم معروف في البلاغة العربية والأوربية وهو الذي يقصدون به التزيين"[51]

وقد تطرأ هذه الزيادة على التركيب بإضافة حروف أو كلمات أو جمل. "وعلى ذلك فالزيادة هي انزياح يقابل الحذف ولكنهما ظاهرتان هدفهما كسر النمط المثالي لقاعدة اللغة من أجل خلق الأثر الجمالي والأسلوبي".[52]

ويشتمل القرآن الكريم على أمثلة كثيرة لأساليب وقعت فيها الزيادة واجتهد المفسرون في تأويلها والبحث عن مسوغات ذكرها، انطلاقا من كون كلام الله عز وجل لا يمكن أن يكون فيه حرف زائد لا يحمل سمة دلالية معينة. وقد اعترض كثيرون ومنهم الطاهر بن عاشور على بعض أصحاب التفسير اللغوي الذين يعربون بعض المفردات أو الجمل أنها زائدة كحروف الجر والضمائر وغيرها. ومثال ذلك قوله تعالى:﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.[53]

يقول الطاهر بن عاشور: "اللام في قوله لك لام التبليغ، وهي التي تدخل على اسم أو ضمير السامع لقول أو ما في معناه، نحو: قلت له، وأذنت له، وفسرت له وذلك عند ما يكون المقول له الكلام معلوما من السياق فيكون ذكر اللام لزيادة تقوي الكلام وتبليغه إلى السامع، ولذلك سميت لام التبليغ. ألا ترى أن اللام لم يحتج لذكره في جوابه أول مرة ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا، فكان التقرير والإنكار مع ذكر لام تعدية القول أقوى وأشد."[54]

جاء القول على لسان الخضر لموسى عليهما السلام خلال رحلتهما التي هيأها الله لنبيه للاستزادة من العلم ممن هو أعلم منه، وتبدأ القصة بقوله تعالى:﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ

لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾.[55]

ولكن موسى عليه السلام خفيت عنه الحكمة فيما كان يقوم به الخضر من أفعال بوحي الله عز وجل، وكان في كل مرة يستنكر ما يراه من تلك الأفعال رغم أنه نهي عن السؤال﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[56]. فجاء رد الخضر في الأولى﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾،ثم كان جوابه في الثانية﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾،ثم كان الفراق بينهما في المرة الثالثة.

الشاهد في الآيات الكريمة، زيادة الجار والمجرور(لك) في جواب الخضر لسيدنا موسى عليهما السلام للمرة الأخيرة ما لم يرد في المرتين السابقتين. واعتبر ابن عاشور هذه اللام لام التبليغ التي تتصل بالأسماء والضمائر، وأنها تفيد تقوية الكلام وتقريره في ذهن السامع.

وبتتبع أجوبة الخضر لموسى عليهما السلام، نلحظ ارتقاء في لهجة الخطاب من اللين إلى الشدة، وذلك بسبب نفاد صبر نبي الله وتلهفه لمعرفة الحكمة من وراء ما قام به الخضر. فابتدأ الكلام لينا ساعة لقائهما حيث جاء التنبيه من الخضر لموسى فقال:﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ بتأكيد الخبر بحرف التوكيد(إنّ) متصلا بكاف الخطاب وبالنفي القاطع الذي يحيل على المستقبل(لن).ثم أتبع ذلك بالتماس العذر له حيث قال:﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾[57] لأنه لا علم له بما يجري. وارتقى الأسلوب في الجواب الثاني حين قال:﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[58]،وذلك بعد احتجاج موسى على خرق السفينة، حيث انتقل الخضر من الأسلوب الخبري إلى الإنشائي بإنشاء الاستفهام الإنكاري (ألم أقل...) التي يجاب عليها ببلى في حالة الإثبات وبنعم في حالة النفي، وهو بذلك يقيم الحجة على سيدنا موسى لأنه سبق أن نبهه ونهاه.

ولما شهد موسى مقتل الغلام زاد استنكاره واحتجاجه على الخضر، فجاء الجواب أشد لهجة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، بزيادة (لك) لإفادة التذكير والتقرير من جهة والإنكار والشدة من جهة أخرى، حيث إن الخطاب تضمن عدة أساليب (الاستفهام الإنكاري، كاف الخطاب المتصلة بلام التبليغ، التوكيد، النفي) تؤدي مجتمعة المعاني السابقة. إن هذه الزيادة وما يشبهها في القرآن الكريم لا يمكن التغاضي عما تحدثه من أثر دلالي وأسلوبي لابد للقارئ الناقد(المفسر)أن يحوم حولها لمحاولة إدراك المزية والفائدة التي يمكن استخلاصها من ورائها.

خاتمة:

تفسير العلامة الطاهر بن عاشور المعروف اختصارا ب"التحرير والتنوير"، موسوعة ضخمة استغرق تأليفها قرابة الأربعين سنة، انكب فيها على تفسير القرآن الكريم تفسيرا شاملا يجمع بين التفسير النحوي والبلاغي والفقهي والأسلوبي، أخذا بعين الاعتبار ما توصل إليه المفسرون من قبله، مع زيادة ما تبدى له من إضافات في أسلوب القرآن وتراكيبه مما لم يكن شائعا في لغة العرب، أطلق عليها "مبتكرات القرآن".

تميز تفسيره عن التفاسير السابقة بالبعد النقدي خلال تعرضه لآراء المفسرين وأقوالهم اجتهادا منه في استخراج معان جديدة غفل عنها أهل التفسير. وقد اهتم في تفسيره للقرآن الكريم بالدراسة الأسلوبية، مركزا فيها على عدة مباحث في علم الأسلوب كالعدول والاختيار والحذف والزيادة والتقديم والتأخير...؛ وقام بدراسة هذه الظواهر اللغوية دراسة فنية بلاغية من جهة ومقاصدية من جهة ثانية غايتها المساعدة على استنباط معان جديدة من القرآن الكريم وفهم مقاصده، معتمدا على المقارنة بين الأشباه والنظائر من الآيات للكشف عما بينها من فروق في المعنى وفي السياق رغم اتحادها في التركيب أحيانا، وأحيانا يكون الاختلاف بينها طفيفا كالاختلاف في حروف الجر أو العطف أو في ترتيب مفرداتها.

ويبقى العدول مبحثا هاما من المباحث الأسلوبية التي اهتم بها الطاهر بن عاشور في تفسيره وتجسد في القرآن الكريم في عدة صور كالعدول في الأزمنة والضمائر والتراكيب والألفاظ وغير ذلك.

الهوامش:

[1] سورة إبراهيم الآية 1. 2.

[2] التحرير والتنوير، ص181. 182.

[3] التحرير والتنوير، ص182

[4] المرجع نفسه.

[5] سورة الحج، الآية 29.

[6] التحرير والتنوير، ج 16ص249

[7] سورة الحج، الآية 26.

[8] التحرير والتنوير، ج16،ص249

[9] سورة الحج، الآية 28.

[10] سورة الأحزاب، الآية 23.

[11] سورة الحج، الآية 26.

[12] سورة القلم، الآية 16.

[13] التحرير والتنوير، ج28،ص 77_78.

[14] سورة القلم، الآية 8_16.

[15] سورة القلم، الآية 10.

[16] سورة النساء، الآية 69.

[17] التحرير والتنوير، ج5،ص267.

[18] سورة المائدة، الآية 68.

[19] سورة المائدة، الآية 65.

[20] التحرير والتنوير،ج6،ص245

[21] سورة البروج، الآية 10.

[22] التحرير والتنوير، ص 270.

[23] سورة الحج، الآية 17.

[24] تفسير القرآن العظيم، تفسير ابن كثير، اسماعيل بن عمرو، دار ابن حزم،ص287.

[25] مناهج النقد الأدبي السياقية و النسقية، عبد الله خضر حمد، دار القلم للطباعة و النشر والتوزيع، ص 246.

[26] التحرير والتنوير، ج1،ص8.

[27] لسان العرب. مادة(خار)

[28] مناهج النقد الادبي السياقية و النسقية، عبد الله خضر حمد، دار القلم للطباعة و النشر والتوزيع، ص 205.

[29] سورة هود، الآية 44.

[30] التحرير والتنوير، ج12،ص80.81.82.

[31] سورة الأنعام، الآية 1.

[32] سورة النمل، الآية 60.

[33] لسان العرب، ابن منظور،مادة (عدل).

[34] البلاغة العربية قراءة القراءة، أحمد يوسف،ص69.

[35] سورة المائدة، الآية 9 10.

[36] التحرير والتنوير ، ص120

[37] سورة الفتح، الآية 29.

[38] سورة الفتح، الآية 29.

[39] عبد القاهر الجرجان، .دلائل الإعجاز. قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر. ط2. مكتبة الخانجي بالقاهرة. 1410-1989، ص 106.

[40] سورة المائدة، الآية 8.

[41] سورة النساء، الآية 135.

[42] التحرير والتنوير،ص 82.

[43] سورة هود، الآية 11_12.

[44] عبدالقاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: أبو فهر محمود محمد شاكر، الطبعة الثالثة مطبعة المدني القاهرة، ص 106.

[45] التحرير والتنوير،ص121_122_123.

[46] سورة النور، الآية 10.

[47] التحرير والتنوير،ص 168_169

[48] سورة النور، الآيات 6 7 8 9.

[49] الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة، مجموعة مؤلفين،ص43.

[50] المرجع نفسه، ص43.

[51] البلاغة العربية قراءة القراءة،أحمد يوسف،ص64

[52] الأسلوبية والبلاغة العربية(مقاربة جمالية)،د.مسعود بودوخة،ص159

[53] سورة الكهف، الآية 75_76.

[54] التحرير والتنوير،ج 16، ص 5.

[55] سورة الكهف، الآية65_69.

[56] سورة الكهف، الآية 70.

[57] سورة الكهف، الآية 68.

[58] سورة الكهف، الآية 72.